

فصل كتاب :

يتيمة الدهر

للوزير السيد أبي الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي

الاستاذ برهان الدين الداغستاني

—•••••—

كنت أظن أن اسم « يتيمة الدهر » وقف على كتاب أبي منصور الثعالبي المعروف ، حتى عثر منذ سنوات في خزنة المرحوم أحمد تيمور باشا — على رسالة صغيرة الحجم بمسماة بـ « يتيمة الدهر » للوزير السيد أبي الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي رضي الله عنه .

وهذه الرسالة في ٦١ ورقة مكتوبة بخط نسخي جميل مشكول وكل صفحة في أحد عشر سطراً ، وعلى الرغم من شدة عناية المرحوم تيمور باشا بخطوط خزائنه ، وحرصه الزائد على ذكر مؤلفيها وبيان عصورهم وطرف من تراجمهم — لم أجد في فهرس الخزانة ما يكشف الفطاء عن شخصية مؤلف هذه الرسالة ، وأخذت أقلب الكتاب لعل أجد في ثناياه ما ينم عن هوية مؤلفه فلم أجد إلا تلك العبارة المسطرة في رأس الصفحة الأولى منه وهي :

« كتاب يتيمة الدهر . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الوزير السيد أبو الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي رضي الله عنه : الحمد لله العلي الكبير ، القوي القدير ، العليم الخبير ، السميع البصير ... إلى أن يقول : أما بعد ، فإن أحق ما نطق به لسان ، وأعرب عنه بيان ، وانطوى عليه كتاب ، وانتهى إليه خطاب ، ما زاد في قوة البصيرة ، وعاد بصحة السريرة ، وطرق طرائق السدل ، وبين حقائق الفضل ، فصارت ذكراً للأخيار ، ومزجراً للأشرار ، وقوة لأولى الأبواب والأبصار ، وإماماً للعالم ، وقواماً للأعمال ، يرجع إليه الساسة ، وتبنى عليه السياسة ، وتنظم به الأسباب ، وتجتمع فيه الآداب .

وإن الأدب أذبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة ؛ فأدب الشريعة ما قضى القرض ، وأدب السياسة ما عمر الأرض ،

وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان ، وعمارة البلدان ، وصلاح الرعية ، وكامل الزينة ، لأن من ترك القرض ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض ظلم غيره . في مقدمة طويلة على هذا النسق من سجع قصير غير متكلف استغرق ثمانى صفحات من الأصل إلى أن يقول في آخر المقدمة : « وقد جمنا من إنشائنا في كتابنا هذا ألفاظاً وجيزة ، وأجربناها بحرى الأمثال ، وفصولاً قصيرة قد حملناها عمدة اللواة والعامل ، وعدة للعقلاء وذوى الأعمال ، وقصدنا فيها ألفناه من ذلك وجه الاختصار ليقل لفظه ، ويسهل حفظه ، وجعلناه ألف فصل ومثل في ثمانية أبواب :

الباب الأول : في الاستعانة على حسن السياسة

الباب الثاني : في الاستعانة على فضيلة العلم والعمل

الباب الثالث : فيما يستعان به على الزهد والعبادة

الباب الرابع : فيما يستعان به على أدب اللسان

الباب الخامس : في الاستعانة على أدب النفس

الباب السادس : في الاستعانة على مكارم الأخلاق

الباب السابع : في الاستعانة على حسن السيرة

الباب الثامن : في الاستعانة على حسن البلاغة

واستعنا فيما وضعناه من ذلك بالله الجليل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

ثم قام أحد الناشرين بطبع هذا الكتاب ، وكتب له أحد كبار رجال القضاء الشرعى مقدمة نفيسة ، وصرح كاتب المقدمة بأنه لم يعثر على ترجمة المؤلف ، ولم يشر إلى أن هذه الرسالة طبعت قبل هذه المرة

والواقع أن هذه الرسالة قد طبعت في القاهرة من نحو خمسين سنة ، وإذا أردنا التحديد قلنا : إنها طبعت سنة ١٣١٧ هـ بمسماة بغير اسمها ، منسوبة إلى غير مؤلفها ، فقد طبعت على هامش كتاب « بئر النظم وحل المقدم » لأبي منصور الثعالبي ، وسميت « كتاب الفرائد والقلائد » ، ونسبت إلى أبي منصور الثعالبي أيضاً ، وذلك بالمطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم عصر سنة ١٣١٧ هـ ، ثم طبعت هذه الرسالة مرة أخرى بعنوان « كتاب الأمثال المسمى بالفرائد والقلائد » ، وسمى أيضاً بالمقدم النفيس وزهة الجليس ،

كنت أبليت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب ، ثم إن
لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى
البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المياه ، وسارت فى البلاد ،
ولم تسر بزاد ، وطارت فى الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكنى
لا أتسوق بها لديكم ، ولا أتفق بها عليكم . وللاخرة قلبها
لا للحاضرة ، وللدن اذخرتها لا للدنيا

قَالَ : أنشدنى بعضها فقلت :

يا لمة ضرب الزمان على معرستها خيامه
لله درك من خزاى روضة عادت تقامه
لرزية قامت بها للدين أشرائط القيامه
لخروج بدم النبوة ضارب بيد الأمامه
تقيم بظلمة السيوف مجرع منها حمامه
منع الورود وماؤه منه على طرف التمامه
نصب ابن هند رأسه فوق الورى نصب العلامه
إلى آخرها ، وهى قصيدة فى نحو خمسة وعشرين بيتاً كلها على
هذا الطراز

قال البديع : « فلما أنشدت ما أنشدت ، وسردت ما سردت ،
وكشفت له الحال فيما اعتقدت ، انحلت له العقدة ، وصار سلفاً ،
يوسعنا حلماً »

هذا كل ما وجدته عن السيد أبى الحسين ، ومنه يظهر مكانه
فى العلم والأدب ، كما يعلم أنه من معاصرى البديع والخوارزمى
ومقارعهما ، وأنه كان موجوداً فى أواخر القرن الرابع الهجرى
حتى أن نعرف : هل هذا السيد الذى قص البديع الحمذاني
خبره - هو الوزير السيد أبى الحسين بن أحمد بن الحسن بن على
رضى الله عنه صاحب كتاب بتيمة الدهر ؟ .

ذلك ما لا شئيل إلى الجزم به الآن ، ولعل فى قراء « الرسالة »
القراء من يعرف عن كتاب « بتيمة الدهر » ومؤلفه السيد
أبى الحسين أكثر مما نعرف . فإلى أولئك أوجه الرجاء أن يتفضلوا
بنشر ما لديهم من المعلومات مشكورين .

برهان الدين الراغستاني

ونسب فى هذه المرة أيضاً إلى أبى منصور الثعالبي . وهذه الطبعة
مطبوعة فى مطبعة التقدم التجارية بحارة المنبة رقم ١٠ شارع
محمد على بمصر وليس عليها تاريخ الطبع

وهكذا فقد طبع هذا الكتاب مرتين - ولعله طبع مرات
أخرى لا نعرفها - مسمى بغير اسمه الحقيقي - ونسب إلى غير
مؤلفه فى كلتا المرتين ، حتى عثر على نسخة الخزائن التيمورية ،
معرفة أن اسمه الحقيقي هو « بتيمة الدهر » ، وأن المؤلف هو
الوزير السيد أبى الحسين بن أحمد بن الحسن بن على رضى الله عنه .

بقى أن نعرف من هو السيد أبى الحسين صاحب كتاب « بتيمة
الدهر » ؟ وفى أى عصر عاش ، وما هى مكانته الأدبية ؟

لقد أطلت البحث عن ترجمة للسيد أبى الحسين ، وبدلت
كثيراً من الجهد والوقت ، ولكن حياة هذا السيد الكريم
ما زالت غامضة خفية . لم أستطع كشف القناع عنها ، فإنى مع
كثرة ما بحثت وراجعت من المراجع لم أجده للسيد أبى الحسين
ذكر إلا ما ورد فى رسائل بديع الزمان الحمذاني فى سياق تلك
المنظرة التاريخية التى وقعت بين البديع والخوارزمى فى نيسابور
سنة ٣٨٣ هـ ، فقد ذكر البديع الحمذاني باسم السيد أبى الحسين
أكثر من مرة واحدة فى أثناء حكايته لتفصيلات تلك المناظرة ،
وذكر أن السيد أبى الحسين كان أحد شهود المناظرة المحكمين ،
وأنه كان يناصر الخوارزمى ، وأن الخوارزمى كان يلجأ إليه ويحضره
بالحديث والالتفات فى الجلسة الأولى للمناظرة ، فلما كان المجلس
الثانى احتال البديع على السيد أبى الحسين ، واستأله إلى جانبه
بقسيمة أنشده إياها فى مدح أهل البيت والتشجيع لهم ، واستمع
إلى البديع حيث يقول : « ... ثم حضر السيد أبى الحسين وهو
ابن الرسالة والأمامة ، وعامر أرض الوحي ، والمحتب بفناء النبوة ،
والضارب فى الأدب بمرقه ، وفى المنطق بمحذقه ، وفى الإنصاف
بمحسن خلقه ، فغشم إلى المجلس قد سيفه ، وجعل يضرب عن هذا
الفاضل - أبى بكر الخوارزمى - بسيفين لأمر كان قد موه عليه ،
وحدث كان قد شبه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد !
أنا إذا سارغبرى فى التشيع برجلين ، طرت بمجنحين ، وإذا متَّ
سواى فى موالاة أهل البيت بلحمة دالة توصلت بفرقة لأئمة ، فإن